



لا حضور لسورية في لقاء فيينا المخصص لسوريا. وفيما كان المشاركون يذلون باقتراحاتهم لما يجب أن يكون في سورية، كان نظام بشار الأسد يسجل مجذرة أخرى في سجله الأسود، حاصداً بضع عشرات من الضحايا والمصابين بتكرار القصف على سوق دوما، كما فعل مراراً خلال الشهور الأخيرة. لم يشر أحد في فيينا إلى هذه الجريمة، لا جون كيري في مؤتمر الصحافي المشترك مع سيرغي لافروف، ولا الأخير بطبيعة الحال، ولا حتى المبعوث الأممي البائس ستيفان دي ميستورا الذي جلس بين الوزيرين وحرص خصوصاً على إبداء سرورته لمشاركة إيران أخيراً في مؤتمر دولي للبحث في [إنهاء الأزمة السورية](#).

في أي لقاء مماثل مقبل، لا بدّ من مسألة روسيا وإيران طالما أنهما تمثّلان النظام، وهما وصيّتان عليه، وتدخلتا أساساً لدعمه ومنع سقوطه، لكن استمراره منذ منتصف 2011 حتى الآن لم يعد ليعني شيئاً آخر غير المجازر. وإذا كانت دولة متھورة مثل إيران شجعته على هذا النهج السقيم، فماذا عن دولة مثل روسيا تدخلت في سورية ل تستعيد صفتها ك «دولة عظمى».

عندما تحدّث فلاديمير بوتين عن شعار دعم «الحكومة الشرعية»، هل كان يعني ما يحصل منذ أسابيع من قتل جماعي في قصف كثيف على غوطتي دمشق. وعندما سعى لافروف إلى إقناع نظيره الفرنسي لوران فابيوس بعدم التقدّم إلى مجلس الأمن بمشروع قرار يحظر القصف بالبراميل المتفجرة، هل تعهد ضمان عدم استخدام هذا السلاح أم أنه كان يدافع عن «حق» النظام في أن يقتل بالطريقة التي يريدها. وعندما تبرع فيتالي تشوركين، المندوب الروسي في الأمم المتحدة، بنفي قاطع لاستخدام النظام البراميل، هل كان يتعمّد الكذب أم أن أحداً لم يخبره بأن أكثر من عشرين برميلاً انهالت في يوم واحد على داريا وحدها؟

يبدو أن ثمة دافعاً رئيسياً للتدخل الروسي لم يُشرَّ إلية حتى الآن، وهو أن الكرملين وجد أن نظام الأسد لم يقتل ما يكفي من السوريين، ولم يدمّر ما يكفي من العمran، ولم يهجر ما يكفي من أبناء الشعب. بل يبدو المشهد حالياً كما لو أن النظام استأجر دولة «عظمى» لمشاركه جرائمه وتساهم معه في القتل والتدمير والتهجير. فكل جريمة جديدة، كل مجزرة، هي تطليخ إضافي لسمعة جيش يقول موسكو إنها معنية بتوحيد صفوفه وإعادة الاعتبار إليه، وتتصرف على أنه ورقتها القوية الرابحة على حساب الميليشيات - «ورقة إيران»، لكن نهجها الأهوج قد يبـَدّ مسعاهـا... فهل اعتزم الأسد تعطيل هذه الورقة الروسية، سواء لأنه لمـسـ أنـ مـوسـكـوـ تحـاـولـ استـقطـابـ «الجـيشـ الحـرـ»ـ والـضـبـاطـ الـذـينـ اـشـقـواـ وـلمـ يـحـارـبـوهـ،ـ وـربـماـ لأنـهـ يـشـعـرـ بـأنـ تعـويـمـ الجـيشـ خـطـوـةـ لاـ بدـ منـهاـ نحوـ إـيجـادـ «الـبـدـيـلـ»ـ أوـ التـرـتـيبـ لإـيجـادـ.

وسواء صـحـ هذاـ التـقـدـيرـ أمـ لاـ،ـ فإنـ روـسـياـ أـقـحمـتـ نـفـسـهـاـ فـيـ سـيـاقـ حـرـبـ ذـهـبـ فـيـهـ نـظـامـ الأـسـدـ إـلـىـ أـقـصـىـ إـجـارـمـهـ وـكـانـ طـوـالـ الـوقـتـ شـرـيكـهـ غـيرـ الـمـباـشـرـ.ـ إـذـاـ صـحـ مـاـ يـتـداـولـ عـنـ أـنـ مـوسـكـوـ لـاـ تـرـحبـ بـلـجـوـءـ الأـسـدـ إـلـيـهـ،ـ تـجـبـبـاـ لـإـشـكـالـاتـ قـانـونـيـةـ وـأـخـرـىـ سـيـاسـيـةـ تـسـيـءـ إـلـىـ دـورـهـاـ فـيـ «ـالـمـرـحـلـةـ الـاـنـتـقـالـيـةـ»ـ،ـ فـمـاـ الـمـصـلـحـةـ الـتـيـ تـسـعـيـ إـلـيـهـ،ـ حـينـ تـصـبـحـ شـرـيكـهـ الـمـباـشـرـ فـيـ الـقـتـلـ أـوـ حـينـ تـعـدـهـ مـثـلاـ (ـكـمـاـ نـقـلـ عـنـهـ)ـ بـدـمـارـ فـيـ إـدـلـبـ يـساـوـيـ عـشـرـ أـضـعـافـ خـرـابـ غـروـزـيـ (ـعـاصـمـةـ الشـيشـانـ).ـ هـلـ هـذـهـ هـيـ الـطـرـيقـ الـتـيـ تـثـبـتـ بـهـاـ روـسـياـ اـخـتـلـافـهـاـ «ـإـيجـابـيـ»ـ عـنـ الـلـوـلـاـتـ الـمـتـحـدـةـ وـمـسـاـهـمـتـهـاـ الـفـارـقـةـ فـيـ تـصـوـيـبـ نـظـامـ دـولـيـ تـرـفـضـهـ بـسـبـبـ الـهـيـمـنـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ عـلـيـهـ؟ـ

حاجـتـ روـسـياـ عـلـىـ الدـوـامـ بـأـنـهـاـ تـرـيدـ الـحـفـاظـ عـلـىـ «ـالـدـوـلـةـ»ـ وـ«ـالـحـكـومـةـ»ـ وـ«ـالـمـؤـسـسـاتـ»ـ،ـ وـأـصـبـحـ وـاضـحـاـ الـيـوـمـ أـنـهـاـ كـانـتـ دـائـمـاـ تـرـىـ «ـالـدـوـلـةـ»ـ فـيـ «ـالـنـظـامـ»ـ،ـ وـ«ـالـمـؤـسـسـاتـ»ـ فـيـ الـجـيـشـ،ـ مـعـ عـلـمـهـاـ الـيـقـيـنـ بـأـنـ النـظـامـ لـمـ يـعـتـدـ يـوـمـاـ إـلـاـ بـزـمـرـةـ السـلـطـةـ الـتـيـ تـنـفـذـ نـزـوـاتـهـ الـاـسـتـبـداـتـيـةـ،ـ وـلـاـ قـيـمـةـ عـنـهـ وـلـاـ اـحـتـرـامـ لـدـوـلـةـ أـوـ حـكـومـةـ أـوـ مـؤـسـسـاتـ.ـ لـيـسـ لـدـىـ الـدـولـتـيـنـ الـمـتـمـسـكـتـيـنـ بـهـذـاـ النـظـامـ،ـ روـسـياـ أـوـ إـيـرانـ،ـ أـيـ نـمـوذـجـ تـجـبـانـهـ إـلـيـهـ لـيـكـونـ مـقـبـلـاـ مـنـ شـعـبـهـ وـجـيـرـاـهـ وـمـحـيـطـهـ.ـ وـقـدـ باـشـرـتـاـ لـلـتوـ منـاـورـاتـ مـشـترـكـةـ لـاستـدـراـجـ قـبـولـ دـولـيـ بـيـقـائـهـ،ـ أـوـ بـ«ـسـورـيـةـ الـمـخـتـلـزـةـ»ـ الـتـيـ تـرـيـدـانـ تـحـصـيـنـ سـيـطـرـتـهـ عـلـيـهـاـ،ـ سـوـاءـ سـمـيـتـ «ـدـوـلـةـ السـاحـلـ»ـ أـوـ «ـإـقـلـيمـاـ»ـ أـوـ اـعـتـبـرـتـ إـحدـىـ «ـمـنـاطـقـ الـنـفـوزـ»ـ الـمـطـرـوـحةـ لـتـوزـعـهـ بـيـنـ أـطـرـافـ جـالـسـةـ إـلـىـ طـاـوـلـةـ فـيـنـاـ.ـ وـتـلـعـبـ هـوـاجـسـ عـدـّـةـ فـيـ الـمـسـاوـمـاتـ،ـ مـنـ خـطـرـ الـإـرـهـابـ إـلـىـ أـزـمـةـ النـازـحـينـ إـلـىـ اـحـتمـالـاتـ الـانـزـلـاقـ فـيـ «ـحـربـ بـالـوـكـالـةـ»ـ وـمـوـاجـهـاتـ إـقـلـيمـيـةـ.

لـذـكـ تـبـدـوـ «ـعـمـلـيـةـ فـيـنـاـ»ـ بـدـاـيـةـ الـطـرـيقـ إـلـىـ حلـ نـهـائـيـ بـسـيـنـارـيـوـاتـ مـتـنـافـسـةـ يـسـتـغـرـقـ كـلـ مـنـهـ وـقـتـاـًـ غـيرـ قـصـيرـ.ـ وـكـانـ الـلـافتـ أـنـ إـيـرـانيـيـنـ دـخـلـواـ بـخـطـابـيـنـ غـيرـ مـتـاـبـقـيـنـ،ـ إـذـ سـرـبـواـ خـارـجـ الـقـاعـةـ تـأـيـيـدـهـمـ لـفـتـرـةـ اـنـتـقـالـيـةـ مـنـ سـتـةـ شـهـورـ وـقـالـ نـائـبـ الـوـزـيـرـ حـسـينـ أـمـيـرـ عـبـدـالـلـهـيـانـ إـنـ إـيـرانـ لـاـ تـصـرـ عـلـىـ إـبـقاءـ الـأـسـدـ فـيـ السـلـطـةـ إـلـىـ الـأـبـدـ،ـ أـمـاـ الـوـزـيـرـ مـحـمـدـ جـوـادـ ظـرـيفـ،ـ فـاقـتـرـحـ اـنـتـخـابـاتـ فـيـ أـجـلـ قـرـيبـ وـكـرـرـ الدـعـوـةـ إـلـىـ «ـحـلـ وـسـطـ»ـ،ـ وـمـاـ لـبـتـ الـمـرـشـدـ عـلـيـ خـامـنـئـيـ أـنـ حـدـدـ «ـمـسـتـقـبـلـ سـورـيـةـ»ـ بـمـسـارـيـنـ هـمـاـ «ـأـنـتـهـاءـ الـحـرـبـ وـإـجـراءـ اـنـتـخـابـاتـ»ـ.ـ لـأـحـدـ يـتـخـيـلـ مـثـلـ هـذـاـ السـيـنـارـيـوـ فـيـ سـتـةـ شـهـورـ،ـ لـكـنـ إـيـرـانيـيـنـ أـرـادـواـ أـنـ يـسـجـلـواـ دـخـولـمـ الـمـعـتـرـكـ الدـولـيــ السـوـرـيـ بـأـطـرـوـحةـ هـيـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـمـنـاـوـرـةـ،ـ إـذـاـ التـقـتـ مـعـ اـقـتـرـاحـاتـ الـجـانـبـ الـرـوـسـيـ وـتـرـكـيـزـهـ عـلـىـ الـاـنـتـخـابـاتـ،ـ إـلـاـ أـنـهـ تـزـاـيدـ عـلـيـهـ بـطـرـحـ مـهـلـةـ زـمـنـيـةـ وـلـوـ غـيرـ وـاقـعـيـةـ.ـ لـمـاـذـاـ؟ـ أـوـلـاـ لـأـنـ الـحـدـيـثـ عـنـ سـتـةـ شـهـورـ فـقـاعـةـ دـعـائـيـةـ تـخـاطـبـ الـاـسـتـعـجـالـ الـغـرـبـيـ بـمـقـدـارـ مـاـ تـشـيرـ إـلـىـ «ـقـدـرـةـ»ـ طـهـرـانـ عـلـىـ الإـنـجـازـ،ـ وـثـانـيـاـ لـأـنـ إـيـرانـ نـفـسـهـاـ مـسـتـعـجـلـةـ أـيـضاـ لـلـانـخـرـاطـ فـيـ مـسـاـوـمـةـ عـلـىـ ثـمـ مـسـاـهـمـتـهـاـ فـيـ الـحـلـ،ـ وـثـالـثـاـ وـهـوـ الأـهـمـ لـأـنـهـ وـرـوـسـيـاـ تـتـطـلـعـانـ إـلـىـ «ـمـرـحـلـةـ أـسـدـيـةـ وـلـوـ مـنـ دـونـ الـأـسـدـ»ـ أـكـثـرـ «ـشـرـعـيـةـ»ـ مـنـ الـمـرـحـلـةـ الـحـالـيـةـ،ـ بـلـ تـبـدـوـانـ مـوـقـنـتـيـنـ بـأـنـ أـيـ اـنـتـخـابـاتـ سـتـكـونـ لـمـصـلـحـتـهـمـاـ.

دـعـيـتـ إـيـرانـ إـلـىـ «ـفـيـنـاـ 2ـ»ـ مـنـ دـونـ أـنـ يـطـلـبـ مـنـهـاـ الـاعـتـرـافـ بـبـيـانـ «ـجـنـيـفـ 1ـ»ـ،ـ فـهـيـ لـاـ تـزالـ تـرـفـضـهـ.ـ وـلـهـذاـ الرـفـضـ مـغـرـىـ

يُستدلّ عليه من الحرص الروسي – الإيراني على عدم تجديد الجدل حول «رحيل الأسد»، والترويج لدخول فوري في «مرحلة انتقالية» بتشكيل حكومة من الأطراف الراغبة في العمل تحت رئاسة الأسد كي تمهد لإجراء انتخابات برلمانية ورئاسية بإشرافه، أي بتجاوزٍ متَّوافقٍ عليه لـ «تسوية جنيف» ومفهومها اللذين يفرضان البحث المسبق في مصير الأسد. في أي حال، هذه ليست سوى تمنيات موسكو وطهران، إذ تنتظاران بتسهيلات وتنازلات وهمية، وتصوران التسوية كما لو أنها جاهزة لا شيء إلا لأنهما تعهدانها. وهذه «التمنيات» هي التي بني عليها دي ميستورا خطةه لبناء حل سياسي يرضي النظام وموسكو وطهران.

غير أن الحسابات السياسية في كواليس فيينا قد تفاجئ الروس، كما فاجأتهم الحسابات العسكرية الخطأ للمعارك البرية، حين شنوا عشرات الضربات الجوية لدعم تقدم قوات النظام وإيران، وعندما فحصوا أحوالها وأعدادها ولمسوا إخفاقاتها، فضلّوا التريث لئلا تُحسَب هزائمها عليهم. وجدوا أنفسهم في الحال التي واجهها الأميركيون، أي عملياً من دون قوات على الأرض لاستثمار المساعدة الجوية. لذلك يحاول النظام الآن تعويض هذا النقص بجلب موظفي الدولة من هم تحت الـ 42 عاماً إلى التجنيد والاحتياط، فهو لاء لا يزالون يعولون على الرواتب التي يدفعها لهم، وقد تتوقف إنْ هم تهربوا من الخدمة. لا شك في أن هذا الواقع ينعكس على المشروع الأساسي الذي كان يطمح إلى استخدام قوات النظام وإيران لمحاربة «داعش» وإخراجه من شمال شرقي سوريا. وهذا وحده كافٍ لتفسير عودة الكرملين سريعاً إلى تنشيط ورشة الحل السياسي.

الحياة اللندنية

المصادر: